الدراسات النحوية في الحلة

عوامل النشوء والتأثر بين نحوي الحلة وعلماء النحو في المدن الإسلامية

أ. م. د. قاسم رحيم حسن السلطاني

جامعة بابل / مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية

الملخص

برع علماء الحلة وأجادوا في دراسة اللغة وعلومها غير أننا لم نجد من كتب في هذا الموضوع على الرغم من كثرة ما ألفه علماء الحلة فيه واهتمامهم بالدرس النحوي واللغوي، ولا سيما عند أهل الفقه والأصول، إذ كان يُدرس في المراحل الدراسية كلها، التي اتخذت مناهجها طابع دروس الحوزات العلمية في العالم الإسلامي.

وقد حاولت في هذه الدراسة أن أقف عند الدرس النحوي في الحلة عن طريق الاهتمام بعوامل التأثر والتأثير، إذ كان التأثير والتأثر واضحًا بين علماء النحو الحليين وعلماء النحو في الامصار الإسلامية وغيرها. فقد شهدت مدينة الحلة في أحايين كثيرة بعد تمصيرها في القرن الخامس الهجري ازدهارًا فكريًا ومعرفيًا كبيرين، حتى صارت مركزًا للإشعاع الفكري والعلمي يتوجه إليه العلماء وطلبة العلم من كل مكان، فازدهرت رحلة طلب العلم منها وإليها، وكان من نتيجة ذلك أن ارتحلت أعداد كبيرة من أبنائها العلماء إلى المراكز الحضارية المختلفة في المشرق والمغرب وهذا مما ينبغي تسجيله والوقوف عنده بوصفه إنجازًا وموقفًا يُحسب لهم في المشاركة الفاعلة في مسيرة الحضارة الإسلامية، ونشر العلوم في بلاد المسلمين. وما سجله المؤرخون هو أنَّ علماء الحِلَّة المهاجرين إلى تلك البلاد شكلوا ركنًا مهمًا في الحركة العلمية لتصدرهم مجالس العلم والمحافل الأدبية والمناظرات فيها، كما سُجل في الحياة الفكرية في الموصل وبلاد الشام وبلاد فارس وغيرها.

Syntactic Studies in Al-Hilla

Factors of Emergence and the Mutual Influence between Al-Hilla Syntactic Scholars and the Syntactic Scholars in the other Islamic Cities

Assistant Prof. Qassim Raheem Hassan As-Sultani, Ph D.

The syntactic scholars in Al-Hilla have proved to be superior and they have proficiently done well in studying language and its branches, but I have not found any one of these books searching in such fields despite the fact that much has been written by those scholars, and their attention of the linguistic and syntactic lesson, especially, by those who wrote in jurisprudents and in principles of Islamic law. Linguistics and syntax used to be taught in all the stages, and their studies adopted the syllabuses and methods used by those Hawzas(seminary schools) in the Islamic world.

Those who worked in the field tried to pay attention to the factors of being affected and affecting. Those factors have been evident among the syntactic scholars in Al-Hilla as well as those who have worked in the other Islamic territories. In fact, Al-Hilla, after its being populated in the fifth century of Hegira, has frequently witnessed a widespread prosperity in the intellectual and mental fields. The City of Al-Hilla became a shining centre for thought and science, headed for by scientists and scholars from everywhere. The journey to obtain science to Al-Hilla and away from it, therefore, has been very active. The result was that many of its citizen scholars travelled towards the other urban territories in the east and the west. This is what should be recorded and studied as a great achievement carried out by these people as they have been participating in this process actively, an achievement that should be counted to these scholars in the overall journey of the Islamic culture aiming at promulgating sciences in the Islamic world. What has been recorded in history is that the immigrant scholars of Al-Hilla to these territories have formed an important pillar in the scientific movement by their occupation of the first place in the scientific sessions and literary assemblies and discussions, as it has been recorded to them in the intellectual life in Al-Mosil, Syria, Persia and other territories.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين.

أما بعد

فهذا البحثُ هو خلاصةُ دَرسٍ لم يدرج في قائمة الدروس النحوية للمدن التي دونها أعلام الدراسات اللغوية عند العرب والمسلمين عامة لأسباب سنذكرها لاحقاً، ففيهِ حاولتُ دراسة تأصيل الدرس اللغوي في الحلة، ولاسيما الدرس النحوي عند علمائها.

والحقيقة أن التأصيل لدرس نحويٍّ لمدينة ذات مذهب عقائدي يخالف في كثير من معتقداته المذاهب الإسلامية السائدة الداعمة للسلطات الحاكمة آنذاك، كان أمرًا عسيرًا وطريقًا وَعِرًا شائكًا؛ لقلَّةِ ما كُتب عن حياتها الفكرية لأنها كانت في مواجهة دائمة مع تلك السلطات والمذاهب، وهذا السبب الرئيس الذي أدى إلى غيابها عن أقلام المؤرخين الموالين للسلطات الحاكمة مدة طويلة من الزمن، كانت فيها رائدة للكثير من الدراسات الإسلامية التي شاعت وانتشرت في مشارق الأرض ومغاربها لاسيما في الوقت الذي سُمِّي بالفترة المظلمة للأمة الإسلامية، وذلك في القرن السادس وما تلاه، فكان علماء هذه المدينة مُغَيَّبين عن صفحات التاريخ وعلومهم التي كان عامة الناس يتدارسها في المؤسسات العلمية في بلاد المسلمين؛ لأن مذهبهم شمولي وفكرهم عالمي لا يحده حد ولا يحجزه حاجز، فهو فكر القرآن دستور البشرية الذي لا ينقضه وضع واضع من الناس، وهو فكر أهل البيت الذين عليهم السلام أذهبَ اللّهُ عنهم الرجسَ وطهَّرهم تطهيرًا.

فكل ذلك جعل التأصيل للدراسات اللغوية والنحوية في هذه المدينة أمرًا عسيرًا لقلة المصادر وتعدد الحقب الزمنية التي تعثرت فيها مسيرة الدراسات اللغوية عند العرب، فأيقنت بضرورة إحياء ما اندثر من معارف وعلوم كانت تمثل مرحلة النضج الفكري عند المسلمين بعد الانحطاط الذي وصل إليه العالم الإسلامي في ذلك الوقت في المدن الإسلامية الكبيرة، في هذا الجهد الذي بذلتهُ واستنفد مني وقتًا طويلًا شغل فكري.

لقد لخَّصتُ في هذا البحث مسيرة الدرس النحوي في الحلة الفيحاء. هذه المدينة التي ازدهرت فيها الحياة فأصبحت محط انظار العالم الإسلامي وتطورت فيها الحركة الفكرية ولاسيما في القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الهجرية فنشطت فيها حركة التأليف والتدريس فكان من بين ما اشتهرت به آنذاك الدراسات اللغوية والنحوية فأثّرت في المراكز العلمية بالرحلة منها وإليها فكان التأثير والتأثر متبادلاً بينها وبين المدن الإسلامية الكبيرة كالكوفة وبغداد والنجف الاشرف والموصل وغيرها داخل العراق، وخارجه مثل بلاد الشام وايران وغيرها، وسنسلط الضوء على بعض الجوانب الفكرية التي تخص الدراسات اللغوية والنحوية فيها وسيكون تركيزنا على اهم العوامل التي ساعدت على نشأة الدرس النحوي في الحلة والتأثير والتأثر بين الحلة والمدن الإسلامية في هذا الجانب.

أما نشأة الدراسات النحوية في الحِلَّة فتكاد تكون مجهولة المعالم؛ لذا حاولت أن أُبين البدايات الأولى لتلك النشأة؛ لأنها لم تحظ من لدن المؤرخين والباحثين بالاهتمام الذي يتناسب وتاريخها العريق الحافل

بالعلم والعلمـاء الأفاضل، وريادتهم لكثيـر مـن العلـوم التي اشـتهر بهـا المسـلمون، كتأسـيس النحو الكوفي على يد أبي جعفر الرؤاسي النيلـي (ت:١٩٣هـ أو٢٠٦هـ)، وغيره ممـن أنجبته هـذه المدينـة العريقة ونواحيها من علماء كبار كان لهم الأثر البالغ في ازدهار العلوم الدينية والأدبية عند العرب والمسلمين عامة ولا سـيما فـي زمن المحقـق الحِلِّيّ (ت:٦٧٦هـ) الـذي قُدِّر عدد تلامذته بأربعمئة مجتهد بحسـب ما ذكره السـيد هادي كمال الديـن قائلًا: (كان يحضـر ندوته العلمية أكثر من أربعمئـة مجتهد عـدا الذين لم يبلغوا درجـة الاجتهاد)[1]، والعلامة الحِلِّـيّ (ت:٧٢٦هـ) الـذي قُدِّر عدد تلامذته بخمسـمئة مجتهـد[2]. وقد نمت فيها الحركة العلمية وتطورت فـي أزمـان مختلفة مـن تاريخها إذ أصبحـت مركزًا ثقافيًـا عظيمًا، وكان لعلمائهـا الفضـل في حفظ تـراث الأمة الإسـلامية النفيس في كل الأزمات التي مرت بها، لكننا نجـد حلقات كثيرة من تاريخها قد فُقدت، إمَّا لأنها لـم تدون أو دونت وطالها الضيـاع ففقدنا من تاريخها صفحات مشـرقات، لو قُدِّر لها أن تحفظ لكانت مـن المصادر القيمة التـي تزودنـا بمعلومـات مهمة عن المدينة.

وقد وجدنا إشارات في الكتب القديمة التي ترجمت لمشاهير علماء العـرب والبلاد الإسـلامية تثبت أن كثيـرًا من كبار علماء المسـلمين في القـرون الأولى ولدوا أو نشـأوا فـي أحضان هـذه المدينـة العظيمة والنواحي المحيطة بها قبل تأسيسها كالنيل، فبرز كثيـر من علمائها الأفذاذ فـي القراءات والدراسـات اللغويـة والنحويـة، ومنهم حمزة بن حبيب الزيات المتوفَّى سنة (١٥٠هـ أو ١٥٨هـ) وأبو جعفر الرؤاسـي ووالده وعمه معاذ الهـرّاء، وهم من موالي

محمد بن كعب القرضي المتوفّى (١٠٨هـ)[٣] المقرئ المحدث ومن تلمذ لهما، وقد تعاقبوا على امتداد التاريخ في قبيلة بني أسد التي ملكت الحلة وأطرافها وعملوا على تطوير المستوى العلمي ورفعه في بلاد العرب والمسلمين، وبتحقق ما ذهبنا إليه، من أنَّ الزيات والرؤاسي وتقي الدين إبراهيم النيلي وغيرهم ينتمون إلى مدينة النيل التي أصبحت تابعة إلى الحلة فيما بعد يثبت أنَّ الحلة رائدة الدراسات اللغوية والنحوية في بلاد المسلمين بعد البصرة كما سيتضح في البحث، ولا بد من تصحيح التاريخ بالكشف عن المهد الحقيقي للدراسات النحوية في الكوفة والمنبع الصافي لفكر علماء هذا المذهب وهي منطقة النيل التي نبغ كثير من أبنائها في العلوم التي ازدهرت في بلاد المسلمين ولا سيما في الكوفة التي اتخذها الإمام علي عليه السلام عاصمة الخلافة الإسلامية (٣٥ ـ ٤٠هـ) فكان منهم القرّاء والمحدّثون واللّغويون[٤].

ولم تكن عناية علماء الحلة بالدراسات اللغوية والنحوية أقلّ من عنايتهم بالعلوم الأُخر كالفقه والأصول والتفسير والعلوم العقلية والنقلية. وما ألفوه من الكتب في هذا المجال يلفت الانتباه، فقد برع علماء الحلة وأجادوا في دراسة اللغة وفروعها، والمؤسف أن تلك الكتب لم أجد منها كتابًا واحدًا عندما بدأت البحث في هذا الموضوع، على الرغم من كثرة ما ألف علماء الحلة وعظيم اهتمامهم بالدرس النحوي واللغوي، ولا سيما عند أهل الفقه وأصوله ـ إذ كان يُدرس في المراحل الدراسية كلها، التي اتخذت مناهجُها طابعَ دروس الحوزات العلمية في العالم الإسلامي.

وكان أشهر النحويين في بلاد العرب قد تعاقبوا على امتداد التاريخ في قبيلة بني أسد، وكان

علماء أسرة آل المطهر الأسديين من أبرز من نشر العلوم، فقد عملوا على تطوير المستوى العلمي ورفْعِه في بلاد العرب والمسلمين عامة ولا سيما في مدينة الحلة التي تُعد من أعمال الإمارة المزيدية حتى سنة (٥٨٨هـ)[٥].

وكانت البيئة التي شهدت ظهور أوائل الدارسين الكوفيين: الكسائي (ت:١٨٩هـ) والفراء (ت:٢٠٧هـ) ومن سبقهما ممن تَلْمَذوا للرؤاسي النيلي هي الكوفة، وهي تقع مع الحلة في إقليم واحد[٦] ـ وهي بيئة الإقراء والحديث، إذ كان هؤلاء النحاة قُرَّاءً، أو كانوا معنيين بالقراءات، وبرواية الحديث والشعر، والكسائي تلميذ أبي جعفر الرؤاسي وهو ثالث اثنين من السبعة ضمتهم الكوفة[٧]، والآخران عاصم بن أبي النجود (ت:١٢٨هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات النيليّ (ت:١٥٦هـ)[٨].

نحويو الحلة ومكانتهم العلمية

لم يُعرف علماء الحلة في الأوساط الثقافية والمحافل العلمية بوصفهم فقهاء فحسب وإنِ اشتهروا بذلك، وإنَّما كان العالم منهم يحمل فكرًا موسوعيًا لكل أنواع المعارف التي عرفتها الحضارة الإسلامية، فكانت مجالسهم تحفل بالمناظرات الأدبية واللغوية إلَّا أنَّ أغلب ما كان يدور في حلقات درسهم لم يُدوَّن فضاع منه كثير على الرغم من أنهم اهتموا بالتدوين وكثرة التأليف وانمازوا بأسلوب النقد والمناقشة لآراء المتقدمين ومناظرة المعاصرين لهم.

وفي عصر الإمارة المزيدية (٤٩٥هـ ـ ٥٨٨هـ) ازدادت رعاية الأمراء المزيديين للعلماء والشعراء والأدباء فتطور الشعر، وهذا راجع إلى طبيعة الأقوام والقبائل التي كانت تسكن الحلة والنواحي المحيطة بها واهتمامهم بالكلام العربي نثره وشعره؛ لذا قصدهم الأدباء والشعراء من مختلف البلاد

الإسلامية، وكَثُرَ بعد هذا العصر الكُتَّاب والنُسَّاخ وهذا ما نجده في الخطوط والحواشي والتعليقات والأختام على أعداد كبيرة من النسخ الخطية المنتشرة في مكتبات العالم اليوم فعند مراجعاتي وإحصائي للتراث الحِلِّيّ في عدد من مكتبات العالم ولاسيما المنتشرة في إيران وسوريا زيادة على الموجودة في العراق وجدت عددًا كبيرًا من توقيعات الحِلِّيّين إمَّا بنسخها أو إجازة أحد طلابهم بروايتها عنهم أو أخذها عن مشايخهم(٩).

ونشطت حركة التجديد في زمن ابن ادريس الحِلِّيّ (ت:٥٩٨هـ) وبلغت ذروتها في زمن العلامة الحِلِّيّ (ت:٧٢٦هـ)، وكَثُرَ التأليف في هذه الحقبة من حياة الحِلِّيّين فصنفوا في اللغة والنحو والقراءات: المتونَ والمختصرات والشروح والحواشي. ويظهر ذلك في الإجازات والتعليقات التي نجدها على كتب المتقدمين عليهم، ممن أخذوا عنهم رواية كتب النحويين واللغويين. ومن جاء بعدهم فنلاحظ أنهم عكفوا على الكتب اللغوية والنحوية التي ذاعت شهرتها في الأمصار بالدرس والشرح والتدريس وأبرز تلك الكتب ما ألفه الزّجّاج (ت:٣١١هـ) وابن السراج (ت:٣١٦هـ)، والزجاجي (ت:٣٣٧هـ)، وابن جني (ت:٣٩٢هـ)، وابن معط (ت:٦٢٨هـ)، وابن الحاجب (ت:٦٤٦هـ)؛ لأن الاشتغال باللغة والنحو من مقدمات دراسة علوم الدين وأصوله.

العوامل التي ساعدت على نشأة الدرس النحوي في الحِلَّة

إن من الأهمية بمكان تسليط الضوء على العوامل التي ساعدت على نشأة الدرس النحوي في الحِلَّة، وهذا ما درج عليه الدارسون عند تأصيلهم للدرس النحوي في المدن والأمصار الإسلامية كما

فعل الدكتور مهدي المخزومي في كتابيه مدرسة الكوفة النحوية، والدرس النحوي في بغداد، والدكتور هادي عطية عندما كتب عن نشأة الدراسات النحوية واللغوية في اليمن، ورضا عبد الجليل الطيار في كتابه الدراسات اللغوية في الاندلس، والدكتور عباس علي الأوسي في كتابه الدرس النحوي في الموصل، ود.عبد الرحمن السيد في (مدرسة البصرة النحوية)، وغيرهم ممن أصّل للدرس النحوي ومن أهم هذه العوامل:

الموقع الجغرافي

تقع الحِلَّة في منطقة تتوسط أهم مركزين للدراسات النحوية عند العرب والمسلمين عامة، وهما الكوفة وبغداد مركزا الإقراء، والدراسات النحوية بعد البصرة، ولا شك في أنَّ للموقع الجغرافي أثرًا في الاتجاه الثقافي في البلد[١٠]، إذ تقع بالقرب من مدينة بابل الأثرية جهة الشرق وعلى مسافة أربعة وستين ميلاً تقريبًا جنوب غربي بغداد وعلى نحو أربعين ميلًا إلى الشمال الشرقي من الكوفة[١١].

ويصفها ياقوت الحموي بقوله: (مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين، طولها سبع وستون درجة وسدس، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة، تعديل نهارها خمس عشرة درجة، وأطول نهارها أربع عشرة ساعة وربع، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي (ت:٥٠١هـ)، وكانت منازل آبائه الدور من النيل، فلما قوي أمره واشتد أزره وكثرت أمواله... انتقل إلى الجامعين موضع في غربي الفرات ليبعد عن الطالب[١٢]، وذلك في محرم سنة ٤٩٥هـ، وكانت أجمة تأوي إليها السباع)[١٣]. وقد أشرنا سابقًا إلى أن الحِلَّة والكوفة كانتا إقليمًا واحدًا يسمى (إقليم

بابـل) وهذا ما درجـت عليه كتب التاريخ بـأن بابل: اسـم ناحية منها الكوفـة والحِلَّة[١٤] وهـذا التقارب في الموقع الجغرافي والتجاور له أثر كبير في التبادل الثقافي والمعرفي.

والحِلَّة تتكون من مجموعة من النواحـي والقرى التـي كان لها أثر كبير في الحركة الفكرية آنذاك. إذ أنجبت علماء كانوا روادًا لكثير من العلوم والدراسـات التي ازدهرت عنـد العرب فكانت بحـق من أهم روافد المعرفـة والعلم في بلاد العرب والمسلمين، وأشهر هذه النواحي:

منطقة (النيل) بلدة تقع على نهر النيل المتفرع من نهر الفرات ينتسب إليها الرؤاسـي، وسـعيد بن أحمد ابن مكي، وخالد بن دينار النيلي، وكان لعلمائها الفضل الكبير في كثير من علوم اللغة، وتراث أبنائها فـي الدراسـات اللغويـة ولاسـيما النحوية مما يستحق الدراسة[١٥].

ومن المناطـق التي كان لها أثر في تطور الحركة العلمية ولاسـيما الدراسـات اللغوية منطقة (سـورا) وهي ناحية جنوب الحِلَّة، قال ياقوت الحموي: (سُورَا: مثل الذي قبله إلّا أن ألفه مقصورة على وزن بُشْرَى موضع بالعـراق من أرض بابـل وهي مدينة السـريانيين...وهي قريبة من الوقف والحلـة المزيديـة)[١٦]، وقـد أنجبت علماء تولوا الزعامة الدينية في المدن الكبيـرة ومنها المجـاورة لها، مثل النجف عندما كانت الحوزة العلمية فيهـا، ومن أبـرز أعلامهـا المقداد السيوري الحلي (ت:٨٢٦هـ)[١٧].

ومنطقـة (بُـرْس) وهـي ناحية بأرض بابل ينسـب إليها عبد الله بن الحسن البرسي[١٨]، وأنجبت أعلامًا في الدرس النحوي كالحافظ رجب البرسي[١٩].

ومنطقة (النورية) من قرى الحِلَّة أنجبـت علمـاءً منهم الحسـين بن هداب النوري (ت:٥٦٢هـ)[٢٠].

و(العتائق أو العتايق) وهي قرية

تقع شرقي الحلة المزيدية وإليها ينسب كمال الدين عبد الرحمن بن محمد العتائقي[٢١].

ومما يرتبط بالعامل الديني والجغرافي الرحلة وتلاقح الثقافات بين المسلمين، ولاسيما في مواسم الحج، فكانت قوافل الحجاج تمرّ في مناطق كثيرة وتمكث أيامًا في المدن التي تمرّ بها، والحِلَّة واحدة من تلك الممرات المهمة بين قارة آسيا وشبه الجزيرة العربية وشمال العراق، والجسر الذي أقيم على الفرات من أهم الطرق التي يسلكها حجاج بيت الله الحرام[٢٢]، وزوّار العتبات المقدسة، ولاسيما زيارة الأربعين، ومن المحادثات التي تنشأ بين الحجاج والزائرين وأهل تلك المدن يحصل تبادل الكتب والعلوم بين الأمصار[٢٣].

ومن الملاحظ أن لقربِ الحِلَّة من الكوفة في موقعها الجغرافي أثرًا كبيرًا في التواصل المعرفي والعقائدي والتاريخي بين المدينتين فضلا على الترابط الاجتماعي، وأن الكوفة كانت تفاخر بثلاثة قرّاء مشهورين من بينهم حمزة بن حبيب الزيات النيلي، وبذلك يتضح أثر الحِلَّة ونواحيها في رفد أكبر مركز للإقراء والقراءات عند العرب والمسلمين عامة، إذ كانت على مستوى عالٍ من الاهتمام بالقرآن الكريم وقراءاته وعلومه، وعليه لابدَّ أنْ يكون علماؤها قد ساروا على نهج الكوفيين في الاهتمام برواية الحديث وطرقه، وكانوا رواد القراءات والدراسات اللغوية في الكوفة.

العامل الديني

يُعَدُّ العامل الديني سببًا رئيسًا في نشأة الدراسات النحوية عند المسلمين عامة، وهو السبب نفسه الذي ساعد على نشأتها وانتشارها في الحِلَّة.

ولما كانت الحِلَّة مدينة دينية مسلمة معطاء رَفَدَتِ المراكزَ العلمية بالعلماء والمفكرين ورعت المؤسسة العلمية والدينية، كان من الطبيعي أن يُعنى أهلها بلغة القرآن الكريم. يقول تقي الدين النيلي: (النحو ميزان اللغة العربية وقسطاس الأمثال الأدبية والشيء إذا لم يوزن بميزانه لم يُعرف رجحانه من نقصانه، ولاسيما كتاب الله المُبَيِّنُ للحلال والحرام، والفروض والأحكام، الدال على صفات الله وتوحيده، والمعاد ووعده ووعيده، ولا ريب أن العلم بهذه الأمور من أفضل المعارف، وأعلى رتبة وصل إليها فهم العارف ويتوقف تحصيل كمال ذلك وتمامه على التبحر في علم النحو وأحكامه)[٢٤].

وقد وهب الله هذه المدينة العريقة كثيرًا من الأسباب التي كانت الدافع الأكبر لانتشار حلقات الدرس النحوي فيها على وجه الخصوص، ففيها تقع كثير من الأماكن المقدسة والمراقد المطهرة والمقامات المشرفة التي كانت مراكز لنشر العلم بالدرس والتدريس فيها، وأشهرها قبل تأسيس الإمارة المزيدية، جامع مقام الإمام الصادق عليه السلام[٢٥]، وجامع عبد العزيز السراي من أصحاب الإمام علي عليه السلام[٢٦]، ومقام الامام علي عليه السلام[٢٧].

أَمَّا بعد تأسيس المزيديين إمارتهم فكان أكثرُها شيوعاً مقام الإمام علي عليه السلام المسمّى بمشهد ردّ الشمس[٢٨]، ومقام الإمام المهدي المسمى (مقام الغيبة)[٢٩] الذي أُسِّستْ إلى جانبه مدرسةٌ دينيةٌ تدرس علوم الدين واللغة العربية، ويكفي في شرف هذه المدينة الطيبة وفضل أهلها ما ذكره العلامة المجلسي إذ قال: (وجدت بخط الشيخ محمد بن علي الجباعي رحمه الله: قال الشيخ محمد بن مكي قدس سره: وجد بخط جمال الدين بن المطهر: وجدت بخط والدي رحمه الله قال:

وجدت رقعة عليها مكتوب بخط عتيق ما صورته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أخبرنا به الشيخ الأجل العالم عز الدين أبو المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي إملاءً من لفظه عند نزوله بالحِلَّة السيفية ـ وقد وردها حاجًا سنة (٥٧٤هـ) ورأيته يلتفت يمنة ويسرة فسألته عن سبب ذلك قال: إنني لأعلم أن لمدينتكم هذه فضلًا جزيلًا، قلت: وما هو؟ قال أخبرني أبي عن أبيه عن جعفر بن محمد بن محمد بن قولويه عن الكليني قال: حدثني علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي حمزة الثمالي عن الأصبغ بن نباتة قال: صحبت مولاي أمير المؤمنين عليه السلام عند وروده إلى صفين وقد وقف على تل عرير ثم أومأ إلى أجمة ما بين بابل والتل وقال: مدينة وأي مدينة! فقلت له: مولاي أراك تذكر مدينة أكان هاهنا مدينة وانمحت آثارها؟ فقال: لا ولكن ستكون مدينة يقال لها: الحِلَّة السيفية يمدنها رجل من بني أسد يظهر بها أخيار لو أقسم أحدهم على الله لأبرّ قسمه)[٣٠].

وقد تحقق ذلك فخصّ الله أهل هذه المدينة بالكرامات، فنبغ أبناؤها في كل فروع العلم والمعرفة، ولاسيما في اللّغة والفقه والأدب والأصول والفلسفة وعلم الكلام والتفسير والفلك وغيرها، فخلّفوا تراثًا نفيسًا لا يقدّر بثمن، والدراسات النحوية واللغوية فيها لم تكن أقلّ أهمية من بقية الدراسات والعلوم الأخر، فبرز كثير من أبنائها الأفذاذ في الدراسات اللغوية والنحوية. ومن أبرز أسباب نهضتها العلمية أَنَّ أمراء هذه المدينة ومؤسسيها على جانب عظيم من الثقافة الدينية الإسلامية والمعرفية يعظمون أهل العلم والمعرفة فقربوا الأدباء والشعراء والحكماء من مختلف البلاد؛ لذلك كثر الشعر

وأهلــه والعلم وطلابــه وكانت لهم مجالس للعلــم والمناظــرات الأدبية فلم يكن في الحِلَّة مدرســة نظامية تابعة للسلطة الحاكمة، إذ كانت الدروس تعطى فــي مجالس العلماء التي تعقــد في المســاجد والمقامات المشــرفة وأحيانا في بيــوت العلماء على حلقات تتخذ لها مكانًا خاصًا بها باسم الأســتاذ[٣١]. وهناك إشارة إلى إنشاء الشيخ نجيب الدين محمد بن جعفر بن نمــا الحِلِّي (ت ٦٤٥هـ) بيــوت الدرس إلــى جانب المشــهد المنســوب إلى صاحــب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف وأسكنها جماعة من الفقهاء[٣٢].

العامل السياسي

أما الســبب الرئيس في ازدهار الدراسات النحوية في حاضرة الحِلَّة فهو تشجيع أمرائها للشعراء والأدباء وأهــل العلم لذا كثر العلم والشــعر والمناظرات الأدبية واللغوية في مجالس أمرائها المزيديين ومنتدياتهم الأدبية.

واللافــت للانتبــاه أنَّ أغلــب هؤلاء الأمراء أدباء وعلماء، كانوا يقدرون العلــم وأهلــه، وكانت مجالســهم ساحة للمنافســة والتباري والمناظرة. وكانت من أهــم دعائم قيام دولتهم الدعوة للعلم ونشــره وحرية الفكر. فلم يظهر فــي الحياة الفكرية لهذه المدينة في مختلــف الأزمنة التعصب الفكري. فكان العالــم يطَّلع على فكــر المذاهــب الأُخر بــلا تعصب لتعــرّف إلــى مبادئهــم وطرقهم في الاستنباط والدرس. وكان مبدؤهم الانفتاح على ثقافات المذاهب المختلفة للتعلم والفهم؛ لذلك ساد في عصرهم الجدل والفلســفة والمناظرة، وكان من الطبيعــي أنْ تزدهر علــوم اللغة كما ازدهرت غيرها من علوم الدين بالمستوى نفسه.

ولا نعتقــد أنَّ نشــوء الــدرس النحــوي فــي الحِلَّة قــد تحقق عن طريــق التعصــب الدينــي والانتماء القبلــي والإقليمــي إذ ذهــب بعضُ

الباحثين ـ ممن كتب عن نشوء المدرستين في البصرة والكوفة ـ إلى أن التعصب الديني والانتماء القبلي والإقليمي[٣٣]، والولاء السياسي الأسباب الرئيسة في نشوء المدرستين[٣٤]، فالأمويون (لجأوا بالسياسة إلى التفريق بين القبائل بالعصبية، كما لجأوا بالعنجهية إلى التفريق بين المسلمين بحسب الأعراق، فانقسم المسلمون إلى عربي ومولى، فأما العربي فعلى لسانه لغة القرآن ولغة الدولة وهي عدة في يده للتفوق والتسلط)[٣٥]، فلا نحسب أنَّ ما نَشَأَ مِن دَرسٍ نحويٍّ في الحلة قد تَحَقَّقَ بسَبَبِ العاملِ نَفسِهِ الذي تحقَّق به الدرسُ النَّحويُّ في الكوفَة والبصرة، بل إنَّ أَثَرَ السلطة الحاكمة في الحِلَّة وسياستها في إدارة شؤون البلاد، واحترامها العلم وأهله، وعدم التفريق بين عربي وأعجمي هو ما ساعد على جذبِ الأدباء والعلماء من مختلف البلاد الإسلامية والمراكز العلمية وتشجيعهم على الهجرة إلى الحِلَّة؛ لأنها كانت تنعم بالأمان والاطمئنان والاستقرار النسبي[٣٦]، وسيادة العدل والمساواة بين الرعية، وهذا أدى إلى انتشار الدراسات النحوية واللغوية وتطورها ليس في الحلة فحسب، بل في كثير من المدن الإسلامية بسبب التلاقح الفكري من هجرة النحويين وتنقلهم بين الحلة والمدن الإسلامية الأُخر وسنبين ذلك لاحقا[٣٧].

وكان ارتباط السياسة الوثيق عند أمراء هذه المدينة بالقرآن الكريم وعلوم الدين؛ لأنهم كانوا على جانب عالٍ من الحكمة والدين والتقوى والأدب ـ السبب الأهم في ازدهار الثقافة والمعارف الإسلامية في هذه الحاضرة التي أصبحت قبلة طلاب العلم والأدب ومهوى أفئدة العلماء، وكانت المدّة التي حكم فيها صدقة بن مزيد الأسدي من

أخصب الحقب التي مرت في تاريخ هذه المدينة، ومن الجدير بالذكر أنَّ المؤسسة العلمية في هذه المدينة كانت على جانب من الشهرة، لذا استقطبت أعدادًا كبيرة من الأدباء وطلبة العلوم الدينية والعلوم الأُخر من المدن الإسلامية بصرف النظر عن مواطنهم سواء غربية كانت كحلب ودمشق وحمص وجبل عامل وغيرها أم شرقية كجرجان وشيراز وقزوين ويزد وخراسان والبحرين وقد رفدت المراكز العلمية بكبار العلماء، ولاسيما في العصر العباسي، فكان أمراء هذه المدينة لا يفرقون بين القبائل والأقوام، ولم يكن للعصبية في إمارتهم مكان، لذا كان للعامل السياسي الأثر الأكبر في انتعاش الدرس النحوي في الحِلَّة.

العامل الاقتصادي

عندما قرر سيف الدولة الانتقال مع أبناء إمارته إلى غربي الفرات اختار منطقة الجامعين، (فنزل بها بأهله وعساكره وبنى فيها المساكن الجليلة والدور الفاخرة وتأنق أصحابه في مثل ذلك فصارت ملجأ وقد قصدها التجار فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدة حياة الدولة... وللشعراء فيها أشعار كثيرة)[٣٨]. وهي تتماز بخصوبة أرضها، ووفرة مياهها، وصفاء جوّها، ووقوعها على طرق التجارة كل ذلك كان عاملًا مهما لجذب طلبة العلوم الدينية والادباء

وكان للانتعاش الاقتصادي في الحِلَّة وكثرة خيراتها، وضعفه في بغداد والمدن المجاورة، وحب أهل الحِلَّة للعلم واقتناء الكتب أثرٌ كبير ساعد على جذب العلماء وطلبة العلم وانتقال عدد كبير من مكتبات المدن المجاورة إليها[٣٩]. فانتشرت فيها المكتبات ودور العلم على نحوٍ واسع فكان لذلك الأثر

الأعظم في نهضتها العلمية وعلو مكانتها بين المراكز الثقافية[٤٠]، ولاسيما مراكز الدراسات النحوية، فصارت مكتباتها من أعظم المكتبات، ومن أهم هذه المكتبات خزانة صدقة للكتب إذ حوت آلاف الكتب النفيسة[٤١]، ومكتبة رضي الدين علي بن طاوُس (ت:٦٦٤هـ) التي حوت (١٥٠٠) كتاب سنة (٦٥٠هـ)[٤٢]، ومكتبة غياث الدين بن طاوُس[٤٣]، وكان للنكبة التي حلت بأهل بغداد بعد الغزو المغولي والمجاعة التي أصابت أهلها أثر كبير في انتعاش الجانب الاقتصادي في الحِلَّة. مما ظهر ذلك إيجابًا على نهضتها العلمية وازدهار الحياة الفكرية فيها، إذ كان تجار الحِلَّة يأخذون الأطعمة إلى بغداد ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة، وبهذه الطريقة انتقلتْ بعضُ مكتبات بغداد إلى الحِلَّة[٤٤].

أثر الأقوام والقبائل التي سكنت (بابل) في تطور الدرس اللغوي والنحوي فيها

كان يسكن هذه البقعة (أرض الحِلَّة) والنواحي المحيطة بها شعب له حضارة عريقة ينتمي إلى أُصول بابلية وكلدانية أطلق عليهم العرب اسم (النبط)[٤٥] وكانت لغتهم السريانية[٤٦]، ونجد كثيرًا من ألفاظهم قد تداخلت مع لهجة أهل الحِلَّة وما زالت وأبرزها البزايز، والامشارة، والاشكارة[٤٧] وغيرهما من الألفاظ، ونرى ذلك بارزًا في لغة قرى العذار لتأثرها بالنبطية، وهذه البقية وريثة الحضارات القديمة التي تسكن أرض بابل ظلت تحتفظ بمعارف الأقدمين وتتدارسها، وقد يكون قسم من الظواهر الاجتماعية متوارثًا منهم في المجتمع الحِلِّي، وهذا قد يظهر في مَنْ بقي منهم، ومن نبط بابل (آل الفرات) وهم من قرية نصيبين أو(صريفين) من أرض بابل، وقد

نبغ منهم جماعة تولوا الكتابة والوزارة في العهد العباسي، وقام جماعة من علماء النبط (السريان) بترجمة كتب اليونان إلى اللغة العربية[٤٨]، وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي أيدت مزاعم عدد من المؤرخين العرب وبعض المستشرقين بأن العرب أخذوا علم النحو من السريان من طريق علماء الأنباط في أرض بابل، إذ لا غرابة في نبوغ أهل هذا المصر بالفنون والآداب والعلوم والمعارف المختلفة ولاسيما اللغوية منها والنحوية على وجه الخصوص، ومن الجدير بالذكر أن الإمام عليًا عليه السلام حينما سُئل عن نسبه وأهل بيته قال: (من كان سائلًا عن نسبنا فإننا نبط من كوثى)[٤٩] وكذا ما جاء عن ابن عباس (ت: ٦٨هـ) إذ قال: (نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى والنبط من أهل العراق)[٥٠]، وكُوثَى بالضَّمّ (ثلاث مَواضِعَ... وقيل: بلدة «بالعراقِ» ببابِلَ وتُسَمَّى كُوثَى الطَّرِيقِ. وكُوثَى رَبَّا: من ناحية بابِلَ بأَرْضِ العِرَاقِ أَيضًا وبها وُلِدَ سيِّدُنا الخَلِيلُ عليه السلام)[٥١].

أما في عصر ما قبل الإسلام فكانت تسكن هذه المنطقة قبائل عُرِفَتْ بالفصاحة والبلاغة ومنها أسد، هذه القبيلة الكبيرة التي انتشر أبناؤها في جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها وشرقها وغربها وشاركوا في كثير من العلوم والفنون، وكانت لهم مكانتهم المميزة وكان لهم الأثر الكبير في انتشار الدراسات النحوية في عدد من المراكز العلمية التي اشتهرت بالدراسات النحوية كالبصرة والكوفة وواسط والحِلَّة والموصل وبلاد الشام[٥٢].

وقد يكون سببُ تعددِ المناطق التي أُطلق عليها اسم الحِلَّة نزول أقوام من بني أسد فيها فأطلقوا عليها اسم الحِلَّة سواء أفي البصرة كانوا أم في بابل أو في ميسان،

وقد يفسر ذلك التعدد كثرة ترحال العلماء بين الكوفة والبصرة، وبين الكوفة والحِلَّة وبين الحِلَّة والموصل وبين الحِلَّة وبلاد الشام على نحو يلفت الانتباه، ولاسيما اللغويون والأدباء الذين تنقلوا بين البصرة والنيل وواسط، والذين رحلوا من منطقة النيل إلى البصرة، أو الذين انتقلوا من البصرة إلى منطقة النيل.

النشاط النحوي في البصرة والكوفة وأثره في الدرس النحوي في الحِلَّة

كانت البصرة في الوقت الذي نشأت فيها الدراسات اللغوية والنحوية سنة ست وثلاثين للهجرة مركزًا عظيمًا لتلاقح الثقافات المختلفة وقد شاعت فيها الفلسفة فكثرت فيها المذاهب الكلامية، وكان لذلك فيما بعد أثره في ما أخذ به رجال النحو من المذاهب.

إنَّ طرائق انتقال علم النحو من البصرة إلى الحِلَّة تجلَّت في الرحلة من الحِلَّة وإليها، وكان أبو جعفر الرؤاسي أول من رحل من علماء الحِلَّة من النيل إلى البصرة طلبًا لتحصيل النحو على علمائها[٥٣].

وقبل الحديث عن التأثير والتأثر بين المدن الثلاث البصرة والكوفة والنيل (الحِلَّة) لا بدَّ من الإشارة إلى العلاقة بين الحِلَّة والكوفة أولًا؛ لأنَّ الكوفة تمثل البوابة التي من طريقها دخل الدرس اللغوي والنحوي إلى الحِلَّة والنواحي المحيطة بها[٥٤]، فتعد رابطة الجوار من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار هذا الدرس في المدينتين، فالحِلَّة مجاورة للكوفة وهما يقعان في إقليم واحد بحسب إشارة ياقوت الحموي (ت:٦٢٦هـ)[٥٥] وقد اشرنا إلى ذلك فيما سبق، وكثير من نواحي الحِلَّة كانت تابعة لحكم الكوفة، والرابطة الأهم هي رابطة الانتماء إلى القبيلة الواحدة وهي قبيلة أسد التي سكن أبناؤها أربع مدن كبيرة:

منها البصرة وقد سكنها بنو أسد بن شريك والكوفة التي سكنها بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، والحِلَّة التي سكنها بنو أسد من كلا الفرعين فقال عمر رضا كحالة: (أن بلاد طيِّئ كانت لبني أسد فلما خرجوا من اليمن غلبوهم على أجأ وسلمى، فنزلوا العراق وسكنوا الكوفة منذ سنة (١٩هـ)، وملكوا الحِلَّة، وجهاتها حتى سنة (٥٨٨هـ))[٥٦]، وفي نصِّ كحالة المتقدِّم إشارة مهمة تمثل بداية تواجد بني أسد في الحِلَّة ونهاية حكمهم فيها سنة (٥٨٨هـ)، وهناك كثير من الأدلة تثبت حضور بني أسد بن خزيمة في الكوفة والحِلَّة[٥٧]، ويمكننا التفريق بين بني أسد الذين سكنوا الكوفة والحِلَّة والذين سكنوا البصرة وميسان والنيل بإشارة ابن الأثير المهمة في قوله: (إن أسد بن شريك... لهم خطة بالبصرة يقال لها خطة بني أسد، وليست بالبصرة خطة لبني أسد بن خزيمة)[٥٨].

وقد أثبت الدكتور أحمد مكي الأنصاري نسبة الفرّاء تلميذ الرؤاسي إلى بني أسد بن خزيمة[٥٩] بالولاء، وتابعته الدكتورة خديجة أحمد مفتي بآراء تعزز ذلك[٦٠].

وهذا يدلنا على أن كثيرًا من نحويي الكوفة انحدروا من بني أسد أو الموالين لهم، الذين اشتغلوا بالقرآن والقراءات وعلوم الحديث. وعلى هذا الأساس تعد الكوفة القاعدة التي انطلقت منها الدراسات النحوية التي اعتمدت القرآن والرواية والسماع وهي المصدر الأول للنحو الكوفي والبصري معًا، وبعض قرّاء الكوفة كانوا ينتسبون إلى نواحي الحِلَّة، منهم إمام القراء حمزة بن حبيب الزيات(ت:١٥٦هـ) النيلي الأصل[٦١]، وإمام النحاة أبو جعفر الرؤاسي النيلي.

فهناك كثير من نحاة الحِلَّة

اشتغلوا بالقراءات والتفسير نذكر منهم:

١ ـ أبا المظفر مسعود بن الخير الحلي، وكان قارئًا[٦٢].

٢ ـ محمد بن أبي السعود المبارك بن الحسن بن طالب الحربي الحلي، وكان قارئًا[٦٣].

٣ ـ محمد بن محمد بن هارون المعروف بابن الكال أو الكيال، وكان قارئًا مفسرًا نحويًا[٦٤].

٤ ـ أبا الحسن علي بن نصر بن هارون الحِلِّي، وكان قارئًا نحويًا[٦٥].

٥ ـ شهاب الدين أحمد بن الطبيب بن عبيد الله الحِلِّي، وكان قارئًا[٦٦].

٦ ـ عز الدين الحسن بن محمد ابن حابس الحِلِّي، وكان قارئًا[٦٧].

٧ ـ محمد بن سلطان بن أبي غالب ابن الخطاب، وكان قارئا نحويًا[٦٨].

أما انتقال الدرس اللغوي والنحوي من البصرة إلى الكوفة التي كانت تضم كثيرًا من علماء الحِلَّة آنذاك، ومن ثم إلى النيل والحِلَّة ونواحيها فكان من طريقين:

الطريق الأول: رحلة علماء الكوفة وفيهم علماء الحِلَّة إلى البصرة لطلب العلم على علمائها، التي أشار إليها المؤرخون، وقصة أبي جعفر الرؤاسي خير مثال على ذلك، وغيره من علماء الكوفة الحِلِّيين أو الذين نسبوا إلى نواحيها، سواء الذين رحلوا في القرون الأولى من حياة الدولة الإسلامية أي قبل تأسيس إمارة بني مزيد، أم الذين رحلوا بعد تأسيس الحِلَّة في القرن الخامس الهجري.

أما الطريق الثاني فرحلة علماء البصرة إلى البوادي المحيطة بالكوفة أو المناطق التي سكنها بنو أسد القريبة من الحِلَّة، فعلماء البصرة كانوا يجوبون الصحارى والبوادي لتدوين اللغة من العرب الفصحاء في المناطق البعيدة عن السواحل وبلاد الأعاجم[٦٩]

وكانت المناطق القريبة من الحِلَّة من الأماكن التي تسكنها بعض القبائل التي يُؤخذ بلهجتهم مثل هذيل وأسد وهما من القبائل (الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب... ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم)[٧٠]، ويحتمل أنهم في أثناء التواجد في تلك المناطق التي كان يستغرق المكوث فيها أشهرًا عدة، كانوا ينقلون إلى تلك القبائل ويبثون فيها بعض القواعد اللغوية والنحوية التي كان علماء البصرة قد استنبطوها من قبل، ومن ثَمَّ حصل التأثير والتأثر فيما بينهما، يأخذون اللغة الفصيحة منهم ويبثون فيهم قواعدهم المستنبطة من لغتهم، ومن أبرز هؤلاء ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت:١١٧هـ)، وأبو عمرو ابن العلاء (ت:١٥٤هـ)، والخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٥هـ)، والكسائي (ت:١٨٩هـ)، والنضر ابن شميل (ت:٢٠٤هـ)، والفراء (ت:٢٠٧هـ)، وأبو زيد الانصاري (ت:٢١٥هـ) وغيرهم.

ويرى عدد من الباحثين أنَّ النحوَ البصريَّ امتدَّ إلى الكوفة بعد أنِ اكتملَ علمًا لهُ قواعدُهُ وأصوله ومنهج بحثه على يد أبي عمرو بن العلاء (ت:١٥٤هـ)، وعبد الله بن أبي إسحاق، والمازني عن طريق المُقرئ النحويِّ شيبان بن عبد الرحمن التميمي البصري (ت:١٦٤هـ) بانتقاله إلى الكوفة ومكوثه فيها مدَّة[٧١]، وقد تخرَّج عليه معاذُ بنُ مسلم الهراءُ (ت:١٨٧هـ) عمّ الرؤاسي، وأبو جعفر الرؤاسيّ (ت:١٩٣أو٢٠٦هـ)[٧٢].

إلَّا أنَّ الراجحَ أنَّ النحوَ الكوفيَّ لهُ تاريخٌ قديمٌ، فَمِن النحاة الكوفيين الأوائل سعد بن شداد الرابية[٧٣]، الذي أخذ علمه في النحو عن أبي الأسود الدؤلي[٧٤]، وكان يُعَلِّم النحو في موضع يسمى بـ(الرابية) بالكوفة لذا عُرف بـ(سعد الرابية)،

وله تلاميذ أخذوا عنه هذا العلم حتى وصل إلى أبي جعفر الرؤاسي، رأس نحاة مدرسة الكوفة وصاحب أول كتاب يؤلف في النحو الكوفي، وله حلقة لتدريس النحو في المسجد الجامع في الكوفة[٧٥].

وكان من نحويي الكوفة المعروفين قبل الرؤاسي جويّه بن عائذ الأسدي النحوي الكوفي[٧٦]، وحمران بن أعين الطّائيّ أبو عبد الله المقرئ النحويّ (ت:١٢٩هـ) وقيل سنة (١٣٠هـ)[٧٧] وكان نحويًا[٧٨]، قارئا وهو ممن قرأ على أبي الأسود الدؤلي[٧٩] وأخذ عنه حمزة الزيات[٨٠]. ومن النحاة الأوائل أيضا توبة الملائي[٨١]، وأبان بن تغلب الجريري (ت:١٤١هـ)[٨٢]، وزهير بن ميمون الفرقبي (ت: ١٥٥هـ) الذي كان يأخذ عنه الناس القراءات والعربية وهو يروي عن ميمون الاقرن وكان أبو جعفر الرؤاسي يأخذ عنه[٨٣]، ومعاذ بن مسلم الهرّاء[٨٤] (ت:١٨٧هـ)[٨٥] الذي عاش مئة وخمسين سنة[٨٦] تلمذ لأبي الأسود وهو أستاذ الفراء (ت:٢٠٧هـ)، ونتيجة الاستقراء لمراحل تطور الدرس اللغوي والنحوي في الحِلَّة، وطرق انتقاله، استطعنا الكشف عن الحلقة المفقودة من تاريخ الدراسات النحوية في الحِلَّة وهي أن أغلب علماء الحِلَّة كانوا يَدْرُسُون وَيُدَرِّسون في المراكز العلمية الكبيرة كالكوفة وبغداد ولذلك كانوا يلقبون بالكوفي أو البغدادي؛ لأن الحِلَّة في ذلك الوقت لم تعرف بهذا الاسم فكل عالم كان ينسب إلى المنطقة التي ولد فيها ونشأ، وأحيانًا يُنْسَب إلى المكان الذي يُقِيم فيه مدَّة من الزمن[٨٧] كالرؤاسي الذي يلقب بالنيليّ وأحيانًا بالكوفي، ومنهم مَن يلقّب بالسوراوي أو السيوري، والعتائقي والمطيرابادي، والنوري، والبرسي، والجناجي، وغيرهم كثير، نسبةً إلى قراهم التي أنجبتهم، والكثير

من علماء اللغة الذين هاجروا لِلدَّرْسِ والتَدْرِيسِ وطلب العلم في المراكز العلمية الكبيرة آنذاك.

كما كان لهجرة أعداد كبيرة من علماء النحو إلى الحلة الأثر الكبير في تطور الدرس النحوي في مؤسساتها العلمية ومن هؤلاء ابن الدهان وابن جيا وابن حمدون وغيرهم[٨٨].

ظهور أُسر حلّية تُعنى بالدراسات اللغوية والنحوية

عُرفت الحلة بكثرة العوائل العلمية التي كانت بيوتها بمكانة المؤسسات التعليمية وأشهر هذه العوائل والأُسر أسرة آل طاوُس[٨٩]، وأسرة آل معية[٩٠]، وأسرة آل البطريق[٩١]، وأسرة آل سعيد[٩٢]، وأسرة آل نما الربيعي[٩٣]، وأسرة آل المطهر[٩٤]، وأسرة آل الأعرج الحسيني (آل الشلاه، وآل العطار، وآل الفحام)[٩٥]، وأسرة آل فخار[٩٦]، وأسرة آل عبد الحميد النيليّ[٩٧]، وآل النحوي مثل الشيخ أحمد النحوي، وآل القزويني، و(آل العلقمي، وآل العجلي، وآل الهذلي، وآل المزيدي، وآل الملحوس، وآل عذافة الحلي، وآل المحاويلي، وآل وشاح، وآل سرايا الطائي، وآل العميدي، وآل سليمان، وآل كمال الدين، وآل تاج الدين، وآل شبر، وآل الهيكلي، وآل تريبان العذاري، وآل الطريحي، وآل خضر الجناجي، وآل الحديدي)[٩٨].

فكان لاهتمام هذه الأُسر بالنحو الأثر الجليل في تطور النحو وازدهاره والعناية به بوصفه علمًا متكاملًا له من يتولاه ويحافظ عليه ويجتهد فيه.

التأثر والتأثير بين الحلة والمدن الإسلامية الأُخر

رحلة نحويي الحِلَّةِ إلى مراكز الدراسات النحوية في المدن المجاورة

شهدت مدينة الحلة في أحايين كثيرة بعد تمصيرها في القرن

الخامس للهجري ازدهارًا فكريًا ومعرفيًا كبيرين، حتى صارت مركزًا للإشعاع الفكري والعلمي يتوجه إليه العلماء وطلبة العلم من كل مكان، فازدهرت رحلة طلب العلم منها وإليها، وكان من نتيجة ذلك أن ارتحلت أعداد كبيرة من أبنائها العلماء إلى المراكز الحضارية المختلفة في المشرق والمغرب وهذا مما ينبغي تسجيله والوقوف عنده بوصفه إنجازٍ وموقفٍ يُحسب لهم في المشاركة الفاعلة في مسيرة الحضارة الإسلامية، ونشر العلوم في بلاد المسلمين. وما سجَّلهُ المؤرخون هو أنَّ علماء الحِلَّة المهاجرين إلى تلك البلاد شكلوا ركنًا مهمًا في الحركة العلمية؛ لتصدرهم مجالس العلم والمحافل الأدبية والمناظرات فيها، كما سُجل في الحياة الفكرية في الموصل وبلاد الشام وبلاد فارس وغيرها.

أسباب رحلة نحويي الحلة إلى مراكز الدراسات النحوية

هنالك أسباب كثيرة دفعت علماء الحِلَّة للرحلة إلى مراكز الدراسات النحوية وهجرة كثير منهم إلى المدن المجاورة والبعيدة في البلاد العربية والإسلامية وهي:

١ ـ حث الدين الإسلامي فيما ورد من آي الذكر الحكيم[٩٩]، والحديث النبوي الشريف على طلب العلم والسعي في الحل والترحال لتحصيله ولو كان في أقصى الأرض[١٠٠].

٢ـ اضطراب الأحوال السياسية، واتباع السياسات التعسفية تجاه الحِلِّيين بعد انهيار الإمارة المزيدية دفعتهم للهجرة إلى المدن المجاورة طلبًا لظروف أفضل في العيش والأمن والتعلم كرحلةِ بعضهم إلى بلاد الشام ومصر.

٣ ـ الرعاية والحفاوة التي نالها العلماء والأدباء في بعض البلاد

الإسلامية، ولا سيما في بلاد الشام وبلاد فارس، مما شجع عددًا من الحِلِّيين على الهجرة إليها، ومنهم شميم (ت:٦٠١هـ)، وابن السكون، وابن البطريق (ت:٦٤٢هـ)، وصفي الدين الحِلِّي (ت: ٧٥٢هـ)، وابن العتائقي (ت:٧٩٠هـ)، وغيرهم كثير.

٤ ـ دعوة أمراء بعض المدن الإسلامية للعلماء والأدباء الحليين إلى بلادهم، كدعوة السلطان (خدا بنده) العلامة الحِلِّي إلى بلاد فارس، ونشر فقه أهل البيت عليهم السلام في تلك البلاد، ومثل هذا كان في الحِلَّة عندما كانت الإمارة في قوتها؛ إذ كانت تستقدم الأدباء والعلماء من كل البلاد الإسلامية.

٥ ـ الحاجة والعوز الذي أصاب أبناء هذه المدينة في أزمانٍ مختلفة.

٦ ـ حب العلم واتّباعه أينما وجد؛ والرغبة في الاطلاع على الثقافات الأُخر مما دفع عددًا كبيرًا من الحِلِّيين للاتجاه نحو المراكز العلمية كبغداد والنجف وكربلاء.

٧ ـ حب الشهرة دفع بعض أبناء الحِلَّة إلى الهجرة إلى المراكز الحضرية؛ لإبراز علومهم وفنونهم وإبداعاتهم الخلاقة وامكاناتهم العالية للظهور في تلك الاصقاع.

٨ ـ نشر العلم على نحو ما فعل العلامة الحِلِّي (ت:٧٢٦هـ) في بلاد فارس، وكان بعضهم في رحلتهم إلى تلك المدن يُقرِئون النحو وعلوم اللغة فيها، كما نجده في شُميم الحِلِّي وأثره الكبير في تدريسه اللغة في مساجد الموصل وحلقة درسه التي كان طلاب العلم يزدحمون عليها[١٠١]، وهذا الترحال والتنقل بين الأمصار لم يكن بالشيء الجديد، فقد سنَّ هذه السنة علماء اللغة الأقدمون مثل أبي عمرو بن العلاء، والخليل، والرؤاسي، والكسائي، ومن جاء بعدهم، فكان ذلك أمرًا مألوفًا.

٩ ـ أغلب علمـاء الحلة فقهاء، فكان ذلك يدفعهـم للحصول على الإجـازات العلميـة مـن العلماء في البلاد الإسلامية.

١٠ ـ حـرص العلمـاء على نقل حديـث معين أو متابعتـه، وهذا ما دفع بعضهم إلى الهجرة خارج الحلة لنقل هذا الحديث.

وفيما يأتي بيـان أهم المراكز النحوية التي رحـل إليها نحاة الحلة مرتبة بحسب كثرة أعداد النحويين الحليين الذين رحلوا إلى تلك المدن.

تقسـم رحلة نحويـي الحلة على قسمين:

الأول: رحلة علماء الحلة داخل العراق

رتبنـا المـدن التـي رحـل إليها نحويو الحلة بحسـب التقسيم أعلاه ورتبنا المدن، في كل قسـم بحسب أعدادهم ونسـبة وجودهـم في تلك المـدن فقـد لاحظنـا حضورهم في بعض المدن أكثر منه في غيرها مثل بغداد والنجف، ويعود ذلك لأسباب سنذكرها في مواضعها.

وفي مـا يأتي المـدن التي رحل إليها نحويو الحلة مرتبة فيها أسماء العلماء بحسب التسلسل الزمني:

رحلة نحويي الحِلَّة إلى بغداد

بعـد انتقـال مدرسـة الكوفة النحويـة ممثلـة بعلمائهـا مثـل الكسـائي والفراء[١٠٢] تلميذي أبي جعفر الرؤاسـي إلى بغـداد وازدهار الحيـاة الفكريـة والعلـوم الدينية والطبيعية في العاصمة الجديدة، ولا سيما الدراسات اللغوية والنحوية شدّ الحِلِّيـون الرحال للـدرس والتدريس فيها أيضا، ونشـر العلوم والمعارف بين المسلمين، فلُقِّبَ كثيرٌ من علماء الحِلَّة بالبغداديّ نسبة إلى العاصمة الجديدة ولا سـيما علماء النيل فقد لقب أكثرهم بالبغداديّ[١٠٣] أمثال ابـن الشـجري (ت:٥٤٢هـ)، وابـن الحجـاج النيلي البغـدادي. ومحمد ابـن علـي بن عبـد اللّه بـن أحمد

ابن حمـدان بن أبـي الهَجَّـاء (ت: ٥٦١هـ)[١٠٤] والحسين بن هدّاب النوري (ت:٥٦٢هـ)،[١٠٥] وسعيد بن أحمد بن مكي النيلـي (ت: بعد ٥٦٥هـ)[١٠٦]، والشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد ابن هـارون البغدادي الحِلِّي المعروف بابن الكيّـال (ت:٥٩٧هـ)[١٠٧]، وابن الخازن (ت:٦٠٠هـ)،[١٠٨] وغيرهم.

والمذهبُ الذي ساد في بغداد الذي سُمِّي بعد ذلك بالمدرسة البغدادية ما هو إلَّا امتداد لمدرسـة الكوفة التي عُرفت برمزيها الكسـائي والفرّاء تلميذي أبي جعفر الرؤاسـي النيلي. وهذا أحد أوجه الغموض في الحياة الفكرية للحلة، ولا سـيما اختفاء حلقـات الـدرس النحوي بشـكل يثيـر التسـاؤل؛ لأنهم كانـوا رواد الدراسات النحوية في الكوفة وفي بغـداد والنجف فيما بعـد، وكان لمؤلفاتهـم الأثر الكبيـر في حفظ علوم اللغة، ولا سيما الدرس النحوي الكوفي في مدن إسلامية كثيرة، وقد تتبعنا بعض الشخصيات العلمية البارزة فثبتـت حِلِّيتهم مثل: إبراهيم ابن ثابـت الطائي البغـدادي النيلي النحويّ (ت: ق٧ الهجري)[١٠٩]، ومن المؤرخين المشـهورين المسعودي على سبيل التمثيل صاحب كتاب (مروج الذهـب)، الذي صَرَّحَ عـن موطنه فـي كتابه هـذا بقوله: «وأواسـط الأقاليـم الإقليم الـذي ولدنا به وإنْ كانـت الأيام أنـأت بيننـا وبينهم وساحقت مسـافاتنا عنه وولدت في قلوبنا الحنين إليـه، إذ كان وطننا ومسـقطنا وهـو إقليم بابـل»[١١٠]، وكان ينسبُ إلى بغداد.

أما مَنْ أبدع في علوم اللغة وألف الكتـب ولا سـيما في الدراسـات النحويـة فهناك كثير مـن العلماء درسوا في بغداد على يد ابن الخشاب وأستاذه ابن الشجري النيلي الأصل، وبتحقـق نسـبته إلى النيـل يُعدّ من أوائل النحاة الحِلِّيين الذين سكنوا بغداد ودرّسوا فيها، وحضر عدد من

علماء الحلة المجالس التي عقدت في المدرسة المستنصرية للحصول على الإجازة، ولا سيما مجالس اللّغوي ابن الصيقل الجزري البغدادي (ت:٧٠١هـ)، وقد حضر الحليون هذه المجالس سنة (٦٧٦هـ) لسماع المقامات الزينية[١١١].

فكان للرحلة بين الحِلَّة وغيرها من الأمصار أثرها في تنمية العلوم وانتشارها، ولاسيما في بغداد. وما سنذكره من أعلام الدرس اللغوي والنحوي في الحلة ونواحيها سنرتبهم على وفق الترتيب الزمني: علي بن محمد الديناري بن أبي الفتح النحوي النيلي (ت:٤٧٣هـ)، وابن حُمَيْدَة محمد بن علي بن أحمد النيلي (٤٨٦ ـ ٥٥٠هـ)، ومحمد ابن علي بن حمدان بن أبي الهجاء (٤٦٨ ـ ٥٦١هـ)، والحسين بن هداب النوري (ت:٥٦٢هـ)، وسعيد بن أحمد ابن مكي النيلي (٤٦٧هـ ـ ٥٦٥هـ)، وشرف الكتاب محمد بن أحمد بن حمزة بن جيا النيلي (ت:٥٧٩هـ)، وابن الدهان محمد بن علي بن شعيب بن بركة (ت:٥٩٠هـ)، ومحمد بن سلطان بن أبي غالب بن الخطاب النيلي (ت:٥٩٥هـ)، وابن الكال أو الكيال أبو عبد الله محمد (٥١٥ ـ ٥٩٧هـ)، وأبو علي فرسان بن لبيد بن هوال العياشي الحِلِّي (ت: ق٦)، وابن الخازن نصر ابن علي (ت:٦٠٠هـ)، وشُميم الحِلِّي (ت:٦٠١هـ)، والشيخ أبو الثناء بن هبة الله الحِلِّي (ت:٦٠٤هـ)، وابن السكون علي بن محمد بن محمد ابن علي الحِلِّي (ت:٦٠٦هـ)، وأبو عبد الله محمد بن أبي الفوارس الحِلِّي (كان حيا سنة ٦٠٨هـ)، وعميد الرؤساء هبة الله بن حامد اللغوي الحِلِّي (ت:٦١٠هـ)، وعماد أحمد بن علي بن الحسن بن أبي زنبور النيلي (ت:٦١٣هـ)، وأبو الحسن علي بن نصر بن هارون الحِلِّي (ت:٦١٥هـ)، وابن معالي فخر

الديـن أبـو علي الحسـن الباقلاني (٥٦٨ ـ ٦٣٧هـ)، ومهـذب الدين ابن الخيمـي الحِلِّـي (٥٤٩ ـ ٦٤٢هـ)، وعلـي بن يحيـي بن بطريـق الحِلِّي (ت:٦٤٢هـ)، ومحمـد بـن يحيى بن كـرم الحلـي (ت:٦٥٣هـ)، وفخر الديـن علي ابن تقي الدين الحسـن ابن معالي الحِلِّي (ت:٦٨٣هـ)، وتقي الديـن إبراهيـم النيلـي البغـدادي (ق٧)، وعبـد الكريم بن أحمد بن طـاوُس (ت:٦٩٣هـ)، وتقـي الدين الحسـن بـن علـي بـن داود الحلي (كانَ حيًّا سـنة ٧٠٧هـ)، والعلامة الحسـن بن يوسف بن المطهر الحِلِّي (ت:٧٢٦هـ)، وصفـي الديـن الحِلِّي (ت:٧٥٠هـ)، وأحمـد بـن محمد بن فهد الأسدي الحِلِّي (ت:٨٤١هـ)[١١٢].

رحلة نحويي الحِلَّة إلى النجف الأشرف

كانت النجف على اتصال وثيق بنواحـي الحِلَّـة كالنيـل وغيرها، منذ انتقال الشـيخ الطوسـي إليها سـنة (٤٤٨هـ) إثر الفتنة التي حدثت في بغداد وإحراق كرسـيه الذي لا يعطى إلَّا لوحيد عصره.

ومكتبتـه العظيمـة وداره في الكـرخ باقيتان حتـى يومنا هذا، وبعـد انتظـام حلقات الـدرس في النجف أيام الشيخ الطوسي، أخذت نواحـي الحِلَّـة تنتفـع مـن مناهج التدريس في حـوزة النجف، فانتقل إليها عدد كبير مـن العلماء فلقب كثيـر منهـم بالنجفي، ولا سـيما علمـاء النيل الذين رحلـوا إليها مثل بهاء الدين علي بن غياث الدين عبد الكريم بن عبد الحميد الحسـيني النيلـي النجفـي[١١٣]، وكان أثـر علماء الحِلَّة كبيرًا في حوزة النجف قبل انتقالهـا إلى الحِلَّـة إثر الفتور الذي أصابها بوفاة الشـيخ الطوسي سـنة (ت:٤٦٠هـ) وتزعُّـم اثنين من أبنائه لها مـن بعده، ثم انتقالها إلى الحِلَّـة بانتقال ابن إدريس الحِلِّي (ت ٥٩٨هـ) الـذي يُعد من ألمع المجددين

عند الشيعة لإحيائه الاجتهاد الذي أعاد للمذهب أهم مزاياه، فأصبحت الحِلَّة آنذاك مركزًا علميًا لا يُستهان به إذ كان درس المحقق الحِلِّي (ت:٦٧٦هـ) يحضره أكثر من أربعمئة مجتهد غير الطلبة الذين لم ينالوا الاجتهاد، ومجلس العلامة الحِلِّي يحضره خمسمئة مجتهد، وكانت الجوامع وبيوت العلماء في الحِلَّة والمجالس العلمية التي تقام فيها بمثابة المؤسسات العلمية والمعاهد الدراسية. وبعد أربعة قرون من الانتعاش الفكري في الحِلَّة بدأ الضعف يَدُبُّ في مدارسها، وبدأت مدرسة النجف تسترد عافيتها فأخذ علماء الحِلَّة يشدّون الرحالَ إلى النجف، فرحل إليها المقداد السيوري الذي كان يمثل مدرسة الحلة العلمية، وانتقل معه تلاميذه بانتقاله إليها، وقد أنشأ في النجف مدرسة سُمِّيَتْ باسمهِ، وهي (المدرسة السيورية). فالذين رحلوا كانوا على قسمين: منهم من رحل إليها للدرس، ومنهم من رحل إليها للتدريس نذكر منهم: تقي الدين أبا محمد الحسن ابن علي بن داود الحِلِّي النيلي، وكمال الدين عبد الرحمن العتائقي (ت:٧٩٠هـ)، والمقداد السيوري الأسدي الحِلِّي (ت:٨٢٦هـ)، وحسين ابن الأبرز العميدي الحِلِّي (كان حيا في١٠٥٠هـ)، والشيخ أحمد النحوي (ت:١١٨٣هـ)، وصادق الفحام (ت:١٢٠٤هـ)، وسليمان الكبير المزيدي (ت:١٢١١هـ)، والسيد باقر بن هادي القزويني الحِلِّي (ت:١٣٣٣هـ)، والشيخ حسن الحمود (ت: ١٣٣٧هـ)، والشيخ محمد حسين الجباوي (١٢٨٥ ـ ١٣٥٢هـ)، والسيد عبد الرسول (ت:١٣٠٧هـ)، والشيخ حسين بن الشيخ علي الحِلِّي (ت:١٣٩٤هـ)، والسيد مسلم بن حمود آل العالم الحِلِّي (ت:١٤٠١هـ)، والسيد محمد تقي الجلالي (ت:١٤٠٢هـ)، والشيخ